أثر الأوبئة في مصر والشام
خلال العصرين الأيوبي والمملوكي

يوسف عبدالحميد بن ناجي

أثر الأوبئة في مصر والشام خلال العصرين الأيوبي والمملوكي

The impact of epidemics in Egypt and the Levant during the Ayyubid and Mamluk periods

يوسف عبد الحميد بن ناجي

Abstract

The topic of this research revolves around the impact of epidemics in Egypt and the Levant during the Ayyubid and Mamluk eras. During these two eras, Egypt and the Levant experienced many diseases and epidemics that killed human life and claimed many lives. These epidemics had devastating effects in all political, economic, social, religious and scientific aspects.

مقدمة:

يدور موضوع هذا البحث حول أثر الأوبئة في مصر والشام خلال العصرين الأيوبي والمملوكي، فقد مرت مصر والشام خلال هذين العصرين بالعديد من الأمراض والأوبئة التي فتكت بحياة الإنسان وأودت بالعديد من البشر، وقد كان لهذه الأوبئة آثار مدمرة في جميع النواحي السياسية والاقتصادية والاجتماعية والدينية والعلمية.

إشكالية الدراسة:

إن هذا الموضوع من الموضوعات الهامة والمصيرية في حياة الإنسان، فقد يترتب عليه مصير بشرية وربما أمم بأكملها، فقد نزل بمصر والشام خلال العصرين الأيوبي والمملوكي العديد من الأوبئة مما كان لها العديد من الآثار التي سنتعرف عليها.

حدود الدراسة: الحدود الزمنية لهذه الدراسة تشمل العصرين الأيوبي والمملوكي.

منهج الدراسة:

هو المنهج الاستقرائي التحليلي القائم على جمع المعلومات وتحليلها وربطها مع الحاضر، ثم استخلاص النتائج.

أهداف الدراسة:

ـ التعرف على بعض الأوبئة التي أصابت مصر والشام خلال العصرين الأيوبي والمملوكي.

ـ التعرف على كيفية مواجهة هاتين الدولتين لهذه الأوبئة.

أهمية الدراسة:

ترجع أهمية هذا الموضوع إلى أنه من الموضوعات الهامة والتي تبين الأوبئة التي حلت بمصر والشام خلال هذين العصرين وآثارها على كل النواحي، وكيف استطاعت الدولتين الأيوبية والمملوكية مواجهة الأوبئة والتغلب عليها.

أسباب اختيار الموضوع:

ـ الاهتمام بالأمراض والأوبئة التي أصابت المسلمين في مصر والشام خلال العصرين

ـ الأوبئة في العصرين الأيوبي والمملوكي تعد من الموضوعات الهامة، وقد كتب عنها القليل على حد علمي.

ـ كما أن لهذه الدراسة أهمية أخرى حيث تلقي الضوء على أسباب انتشار الأوبئة، وعن كيفية مواجهتها وطرق التغلب عليها، وهو موضوع يحتاج إلى مزيد من الدراسة.

خطة الدراسة

مقدمة تشتمل على إشكالية الدراسة وحدودها، ومنهجها، وأهدافها، وأهميتها وأسباب اختيار الموضوع.

خطة البحث

أولًا: تعريف بأهم مصطلحات البحث (الأثر ـ الوباء ـ الدولة الأيوبية ـ الدولة المملوكية).

ثانيًا: الأوبئة والمجاعات في العصرين الأيوبي والمملوكي.

ـ دور الدولة في مواجهة الأوبئة.

ـ دور العلماء والعامة في مواجهة الأوبئة

أثر الأوبئة خلال العصرين الأيوبي والمملوكي.

أولًا: الآثار السياسية.

ثانيًا: الآثار الاجتماعية.

ثالثًا: الآثار الاقتصادية.

رابعًا: الآثار العلمية والثقافية.

ـ الأوبئة بين الماضي والحاضر.

ـ منهج النبي صلى الله عليه وسلم في الوقاية من الأوبئة.

ـ الخاتمة

أولًا: تعريف بأهم مصطلحات البحث (الأثر ـ الوباء ـ الدولة الأيوبية ـ الدولة المملوكية).

1ـ الأَثَرُ: مَا بَقِيَ مِنْ رَسْمِ الشَّيْءِ، والتأْثير: إِبْقاءُ الأَثر فِي الشَّيْءِ، وأَثَّرَ فِي الشَّيْءِ: تَرَكَ فِيهِ أَثرًا [1].

---

(1) ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن على (ت 711هـ): لسان العرب: دار صادر ــ بيروت ــ الطبعة الثالثة 1414هـ مادة أثر ج4 ص5.

2ـ الوباء: اسم لكل مرض فهو لفظ عام، ولذلك فإن كل طاعون وباء، وليس كل وباء طاعون، وكذلك الأمراض العامة أعم من الطاعون فإنه واحد منها [1].

والمرض حينما يبدأ في الانتشار خارج حدوده الزمنية والمكانية المعتادة فإنه يتحول إلى وباء (epidemic)، والذي تُعرفه منظمة الصحة العالمية بأنه: "تفشي المرض بأسلوب غير متوقع ويستدعي الاستنفار" وفي هذه الحالة يصبح الوباء كارثة وخاصة إذا حدث تهديد بانتشاره بكل أنحاء العالم[2].

3ـ الدولة الأيوبية (567ـ 648هـ/1171ـ1250م).

تنسب إلى مؤسسها صلاح الدين يوسف بن أيوب، وهو من أسرة كردية من أذربيجان هاجرت إلى العراق. كان والده (نجم الدين أيوب) واليًا على تكريت ثم انتقل إلى الموصل فدمشق، ثم صار هو وأخوه أسد الدين شيركوه من كبار أمراء نور الدين محمود زنكي (صاحب الشام)، وأصبح أسد الدين شيركوه نائبًا لنور الدين على مصر، وبعد موت شيركوه خلفه ابن أخيه صلاح الدين، فكان وزيرًا للخليفة الفاطمي الشيعي (العاضد) ونائبًا عن نور الدين محمود، وفي عام (567هـ/ 1171م) استقل صلاح الدين الأيوبي بحكم مصر وبعد موت نور الدين عام (569هـ/ 1173م) أخذ دمشق وكثيرًا من بلاد الشام، وبذلك كون صلاح الدين دولة إسلامية موحدة قوية استطاع بها أن يقف وجه الصليبيين، وانتصر عليهم انتصارًا حاسمًا في موقعة حطين المشهورة عام (583هـ/1187م) فاسترجع بعدها بيت المقدس وطرد الصليبيين من معظم بلاد الشام بعد احتلال تجاوز التسعين عامًا، ويعد صلاح الدين من أعظم القواد المسلمين الذين وقفوا في وجه الصليبيين واستعادوا البلاد المغتصبة منهم، وبعد وفاته انقسمت الدولة بين

---

(1) ابن قيم الجوزية، محمد بن أبي بكر بن أيوب (ت 751هـ): زاد المعاد في هدي خير العباد: مؤسسة الرسالة ــ بيروت ــ مكتبة المنار الإسلامية ـ الكويت ــ الطبعة السابعة والعشرون ـ 1415هـ /1994م ج4 ص36. 38.

(2) محمد حمزة محمد صلاح: الكوارث الطبيعية في بلاد الشام ومصر(491ـ923هـ/1097ـ1517م): رسالة ماجستير منشورة ـ الجامعة الإسلامية ــ غزة ـ فلسطين ـ 1430هـ/2009م ص18.

أبنائه وضعفت وتنازعوا فيما بينهم حتى سقطت عام (648هـ/1250م) وقامت على أنقاضها دولة المماليك [1].

4ـ الدولة المملوكية (648ـ923هـ/125ـ1517م):

هم سلالة من الجنود الذين جلبهم الأيوبيون من بعض مناطق آسيا الصغرى وهم صغارًا وقاموا بتربيتهم تربية عسكرية، وبعد ضعف الدولة الأيوبية وكثرة النزاع بينهم زاد نفوذ المماليك حتى تمكنوا من الاستيلاء على السلطة عام (648هـ/1250م) وأسسوا في مصر والشام دولتين متعاقبتين استمرت ما يقرب من قرنين ونصف القرن وبالتحديد من (648ـ923هـ/1250ـ 1517م)، وكانت عاصمتهم هي القاهرة: الأولى دولة المماليك البحرية، ومن أبرز سلاطينها عز الدين أيبك وقطز والظاهر بيبرس والمنصور قلاوون والناصر محمد بن قلاوون والأشرف صلاح الدين خليل الذي استعاد عكا وآخر معاقل الصليبيين في بلاد الشام، ثم تلتها مباشرة دولة المماليك البرجية: ومن أبرز سلاطينهم: برقوق وابنه فرج وإينال والأشرف سيف الدين برسباي فاتح قبرص وقانصوه الغوري وطومان باي آخر سلاطين المماليك، وقد سقطت دولة المماليك عام (923هـ/1517م) على أيدي العثمانيين[2] .

ثانيًا: الأوبئة والمجاعات في العصرين الأيوبي والمملوكي.

1ـ العصر الأيوبي.

شهدت مصر وبلاد الشام خلال العصر الأيوبي العديد من الأوبئة والطواعين منها على سبيل المثال: في عام (575هـ/1179م) وقع بمصر وباء عظيم، وكان سببًا في تغير

---

(1) ابن تغري بردي، أبو المحاسن جمال الدين يوسف (ت874هـ): النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة: وزارة الثقافة والإرشاد القومي ـ دار الكتب ـ مصر ـ د. ت ج6 صفحات متفرقة، أحمد معمور العسيري: موجز التاريخ الإسلامي منذ عهد آدم عليه السلام (تاريخ ما قبل الإسلام) إلى عصرنا الحاضر 1417هـ/ 1996ـ1997م: مكتبة الملك فهد الوطنية ـ الرياض ـ السعودية ـ الطبعة: الأولى 1417هـ/ 1996م ص256.

(2) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة: ج7 صفحات متفرقة، مجهول: الموسوعة الموجزة في التاريخ الإسلامي: المكتبة الشاملة ج5 ص75، العسيري: مرجع سابق: ص260 وما بعدها.

رائحة الهواء، وكثرة الوفيات وقد ذكر: أنه مات بالقاهرة خلال خمسة أيام حوالي سبعة عشر ألف إنسان[1]. وفي عام (592هـ/1196م) فشت بمصر الأمراض الحادة وانتقل إلى بعض البلدان كالإسكندرية وقوص وانتشر فيهما الوباء وكثر فيهما الموتى وفشا الغلاء وضاق الخناق على الناس، حتى صاروا يسرقون الخبز ويتشاجرون عليه [2].

وفي عام (633هـ/1235م) وقع الوباء بمصر واستمر لمدة ثلاثة أشهر وقد نتج عن هذا الوباء الفناء والخراب الذي لا حدود له وقدر عدد الموتى بالقاهرة فقط ما يزيد على اثني عشر ألف سوى من مات بريف مصر [3].

وتشير المصادر إلى أن الأوبئة لم تصب الإنسان فقط، وإنما وقعت بمصر عدة أوبئة أصابت الحيوانات والطيور منها على سبيل المثال: وباء عام (581هـ/1185م) الذي وقع في الدجاج[4].

ولا شك أن هذا الوباء لم تقتصر آثاره على الحيوانات والطيور وإنما أصاب بعض الناس، وأثر على صحتهم.

أما بلاد الشام خلال العصر الأيوبي، فلم تسلم هي الأخرى من وقوع العديد من الأوبئة والأمراض التي فتكت بالكثير من الأرواح منها على سبيل المثال:

وباء عام (574هـ/1178م) الذي وقع في بلاد الشام وكان وباءً شديدًا، وقد نتج عنه مرض آخر سمي السرسام واستمر هذا الوباء حتى عام (576هـ/1180م) وقد تعذرت الأقوات واشتد الغلاء وأكلت الناس الميتة وما ناسبها، وقد خلف هذا الوباء أعدادًا كثيرة من الموتى وصفهم ابن الأثير بقوله:" وكان الناس لا يلحقون يدفنون الموتى..." , [5].

---

(1) المقريزي، أحمد بن علي بن عبد القادر (ت845هـ): السلوك لمعرفة دول الملوك: تحقيق/ محمد عبد القادر عطا ـ دار الكتب العلمية ـ لبنان ـ بيروت ـ الطبعة الأولى 1418هـ/1997م ج1 ص181.

(2) المقريزي: نفس المصدر: ج1 ص245.

(3) المقريزي: مصدر سابق: ج1 ص373، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة : ج6 ص293.

(4) المقريزي: مصدر سابق: ج1 ص205.

(5) ابن الأثير، أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد (ت 630هـ): الكامل في التاريخ: تحقيق/ عمر عبد السلام تدمري ـ دار الكتاب العربي ـ بيروت ـ لبنان ـ الطبعة: الأولى

وفي عام (589هـ/1192م) أصاب الوباء مدينة حمص ببلاد الشام، وأصاب الكثير من أهلها، وكان سببًا في هلاكهم[1].

2ـ الأوبئة والمجاعات في العصر المملوكي.

تعرضت مصر والشام خلال العصر المملوكي إلى العديد من الأوبئة من أشهرها على سبيل المثال: في عام (749هـ/1348م) عم الوباء مصر واجتاح القاهرة حتى بلغت أعداد الوفيات في القاهرة فقط عشرين ألفا في اليوم الواحد، وعم هذا الوباء أقاليم الغرب شرقا وغربًا، واشتد الغلاء وانتشرت السرقة، وقد استمر هذا الوباء يفتك بالناس ولم يرتفع إلا في عام (750هـ/ 1349م)[2].

وفي عام (800هـ/1397م) تفشى الوباء في القاهرة والوجه البحري واستمر لمدة ثلاثة أشهر لدرجة أنهم كانوا لا يستريحون من دفن الموتى، وكان العشرين شخصًا يدفنون في حفرة واحدة، إضافة إلى أن بعض الجثث كانت تلقى في البحر[3].

وفي عام (897هـ/1492م) تفشى الوباء في مصر، وتشير بعض المصادر إلى أن إجمالي المتوفين بسبب هذا الوباء بلغ مائتي ألف وزيادة، كما اشتد الغلاء، وفر البعض من الناس إلى

البلدان الأخرى حتى ارتفع الوباء [4].

هذه أمثلة لبعض الأوبئة التي حدثت في مصر خلال العصر المملوكي، وهناك الكثير من الأوبئة لم أتعرض إليها.

1417هـ/1997م ج9 ص436.

(1) ابن أيبك الدواداري، أبو بكر بن عبد الله (ت بعد 736هـ): كنز الدرر وجامع الغرر: تحقيق/ سعيد عبد الفتاح عاشور ـ عيسى البابي الحلبي ـ القاهرة ـ 1391هـ/1972م ج7 ص121.

(2) المقريزي: مصدر سابق: ج4 ص81 وما بعدها.

(3) المقريزي: مصدر سابق: ج5 ص410، ابن حجر العسقلاني، أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد (ت 852هـ): إنباء الغمر بأبناء العمر: تحقيق/ حسن حبشي ـ المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ـ لجنة إحياء التراث الإسلامي ـ مصر 1389هـ/1969م ج2 ص21.

(4) ابن إياس، زين العابدين محمد بن أحمد الناصري القاهري (ت930هـ): بدائع الزهور في وقائع الدهور: الهيئة المصرية العامة للكتاب ج3 ص289.

أما بلاد الشام فلم تسلم هي الأخرى من كثرة الأوبئة التي وقعت بها خلال العصر المملوكي منها على سبيل المثال:

في عام (656هـ/1258م) تعرضت دمشق وحلب لوباء عظيم وكان تعداد الموتى في اليوم الواحد ما يقرب من ألف ومائتي إنسان في حلب[1] أما دمشق فكان لا يحد ولا يوصف[2].

وفي الأعوام (831هـ/1428م) و(832هـ/1429م) و(833هـ/1430م) تفشت الأمراض والأوبئة في بلاد الشام وبخاصة مدن دمشق وحمص وحماة، وكانت شديدة التأثير والفتك في غزة والرملة والقدس وصفد، وأسفرت هذه الأوبئة عن موت الكثير من الخلائق أغلبهم من الأطفال والشباب[3]، وقد وصف المقريزي وباء عام(833هـ/1430م) بأنه يشبه النزلات التي تنحدر من الدماغ إلى الصدر، وتكون أكثر فتكًا بالأطفال والشباب، ثم في العبيد والإماء وأقله في النساء والرجال، ويموت المصاب في أقل من ساعة من غير ظهور أعراض المرض عليه[4] وأطلق على هذا الوباء الفناء العظيم[5].

وفي عام (897هـ/1492م) انتشر الطاعون بالشام ومصر وغيرهما من البلدان وسمي بالطاعون العام الذي لم يسمع بمثله حتى قيل أن ربع أهل الأرض ماتوا به[6].

---

(1) المقريزي: مصدر سابق: ج1 ص499.

(2) الذهبي، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد (ت748هـ): تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام: تحقيق/ عمر عبد السلام التدمري ـ دار الكتاب العربي ـ بيروت ـ الطبعة الثانية 1413هـ/1993م ج48 ص42.

(3) المقريزي: مصدر سابق: ج7 ص192.

(4) المقريزي: مصدر سابق: ج7 ص205.

(5) ابن تغري بردي: مصدر سابق: ج14 ص338، ج15 ص156.

(6) ابن العماد، عبد الحي بن أحمد بن محمد (ت 1089هـ): شذرات الذهب في أخبار من ذهب: تحقيق/ محمود الأرناؤوط ـ دار ابن كثير ـ دمشق ـ بيروت ـ الطبعة الأولى 1406هـ/1986م ج9 ص945.

وفي عام (919هـ/1513م) انتشر الوباء في دمشق وبيت المقدس وغزة والرملة وبعض المدن الشامية، وبلغ تعداد من مات بهذا الوباء ما يقرب من خمسة وسبعين ألف نسمة[1].

من خلال عرض هذه النماذج من الأوبئة التي وقعت بمصر والشام خلال العصرين الأيوبي والمملوكي نلاحظ كثرة الموتى بسبب هذه الأوبئة، ومن الممكن أن يكون المؤرخون قد بالغوا في عدد المتوفين جراء هذه الأوبئة؛ إلا أنها تشير إلى مدى ضخامة الخسائر البشرية والتي كانت هذه الأوبئة السبب الرئيسي فيها، إضافة إلى ذلك كانت هناك عدة آثار سيتم الإشارة لاحقًا.

ـ دور الدولة في مواجهة الأوبئة.

لابد لأي دولة أن يكون لها دور رئيسي زمن وقوع الأوبئة، وقد يكون ذلك نابعًا من مبدأ الحفاظ على الدولة وتثبيت أركانها، ولكسب الرعية والوقوف إلى جانبهم في أوقات المحن، والنظر في أمورهم وأحوالهم[2] وقد كان دور الدولة متمثلًا في عدة أمور منها.

ـ إنشاء البيمارستانات.

من الطبيعي أن تقوم الدولة بدورها في مواجهة الأوبئة وتقديم الرعاية الصحية للمرضى، ولذلك قامت الدولتان الأيوبية والمملوكية بإنشاء العديد من البيمارستانات (المستشفيات) في مصر والشام منها: في بلاد الشام كان البيمارستان الصلاحي في مدينة القدس وعكا، والذي أنشأهما السلطان صلاح الدين الأيوبي بعد استعادة القدس من أيدي الصليبيين عام (583هـ/ 1187م)[3].

---

(1) ابن الحمصي أحمد بن محمد بن عمر الأنصاري(ت934هـ): حوادث الزمان ووفيات الشيوخ والأقران: تحقيق/ عبد العزيز حرفوش ـ دار النفائس ــ بيروت ــ لبنان ــ الطبعة الأولى 1421هـ/2000م ج3 ص498.

(2) عامر حمود: الأمراض والأوبئة وأثرهما على الحياة الاجتماعية لبلاد المغرب العربي في العصور الإسلامية: بحث منشور بمجلة الجامعة العراقية ــ العدد 1/41 ص350.

(3) أحمد عِيسى: تاريخ البيمارستانات في الإسلام: دار الرائد العربي، بيروت ــ لبنان ـ الطبعة: الثانية 1401هـ/1981م ص230، 233.

أما في مصر فكان هناك البيمارستان العتيق أو البيمارستان الناصري أو الصلاحي، وبيمارستان الفسطاط القديم وبيمارستان الإسكندرية[1] وقد أعاد صلاح الدين فتح هذه البيمارستانات، حيث كانت الرعاية الصحية في ذلك العهد من أهم أعمال البر والخير، أكثر منها من مهام الدولة الحاكمة[2].

وفي العصر المملوكي في بلاد الشام كان هناك البيمارستان المنصوري والذي أنشأه السلطان المنصور قلاوون عام (680هـ/1281م) في مدينة الخليل، وبيمارستان الأمير علم الدين سنجر في الكرك وغزة عام (745هـ/1344م)[3] .

أما في مصر: فمن أشهر البيمارستانات التي أنشئت في ذلك العهد، وذاع صيتها في أنحاء مصر وخارجها، وحظيت برعاية سلاطين المماليك وأمرائهم، كان البيمارستان المنصوري، الذي أنشأه الملك الناصر قلاوون عام(683هـ/1284م)، والبيمارستان المؤيدي الذي أنشأه السلطان المؤيد شيخ عام (821هـ/1418م)[4].

كان من وظائف هذه البيمارستانات أيضًا تقوم بغسل وتكفين من يموت فيه من المرضى ممن لا يجدون من يشرف على تجهيزهم ودفنهم وتتجلى هذه الخدمة للبيمارستان بوضوح في أثناء فترة انتشار الأوبئة والطواعين[5].

وهناك الكثير من البيمارستانات التي أنشئت في بلاد الشام ومصر لمواجهة مثل هذه الأوبئة، ولا شك أن هذه البيمارستانات كانت تقوم بدورها على أكمل وجه لمواجهة الأمراض والأوبئة التي وقعت خلال هذه الفترة.

---

(1) أَحمد عِيسى: المرجع السابق: ص76، 82،

(2) خلف أحمد محمود: البيمارستانات في الحضارة الإسلامية: مقال منشور مجلة الداعي الشهرية الصادرة عن دار العلوم ديوبند ـ الجامعة الإسلامية ـ الهند ـ العدد 6ـ7 عام 2014م .

(3) أَحمد عِيسى: المرجع السابق: ص247.

(4) أَحمد عِيسى: المرجع السابق: ص83، 172.

(5) مبارك محمد الطراونة: الأوبئة (الطواعين) وآثارها الاجتماعية في بلاد الشام في عصر المماليك الجراكسة (784ـ922هـ/1382ـ1516م): بحث منشور بالمجلة الأردنية للتاريخ والآثار ـ مجلد 4 العدد 3 عام 2010م ص55.

وبالمقارنة بين العصرين نجد أن البيمارستانات التي أقيمت في العصر الأيوبي في الشام ومصر أكثر من تلك التي أنشئت في العصر المملوكي، وذلك يرجع إلى أن صلاح الدين واحدًا من أكثر الحكام في زمانه اهتمامًا ببناء المستشفيات واهتمامه بالأطباء وبناء المساجد والمدارس، وكل ما ينفع المجتمع.

ـ استقدام الأطباء.

كما كانت الدولة تقوم باستقدام أمهر الأطباء لمعالجة مرضى الأوبئة، ومثال ذلك عندما وقع الوباء في مصر عام (611هـ/1214م) تم استقدام الطبيب مهذب الدين عبد الرحيم، وكان من أشهر أطباء دمشق في ذلك الوقت[1].

أما في العصر المملوكي فلم تشر المصادر إلى أنهم كانوا يستقدمون أطباء لمواجهة الأوبئة.

ـ منع مظاهر الفساد المنتشرة في الدولة والمجتمع والإحسان إلى الرعية.

كان من الأمور التي يقوم بها السلطان ورجال الدولة عند وقوع الأوبئة هو التظاهر بالعدل ومحاربة الفساد المنتشر في مؤسسات الدولة من ناحية والمجتمع من ناحية أخرى، فيتولى السلطان الكثير من الأمور الإدارية والنظر بأحوال الرعية بنفسه وماله كالحسبة[2].

كما نجد أن السلاطين وأرباب الدولة كانوا يقومون بالإكثار من الصدقات والإحسان إلى الرعية في أوقات الوباء فعلى سبيل المثال: قام السلطان المؤيد شيخ المملوكي بنفسه في

---

(1) ابن أبي أصيبعة ، أحمد بن القاسم بن خليفة بن يونس (ت 668هـ): عيون الأنباء في طبقات الأطباء: تحقيق/ نزار رضا ـ دار مكتبة الحياة ـ بيروت ص731 وما بعدها.

(2) ابن تغري بردي: مصدر سابق: ج14 ص41، 42، 78، 79، فتحي اللهيبي، فائز الحديدي: جوانب من الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية في العصر المملوكي تفسير جديد: جامعة الموصل ـ الطبعة الأولى 1435هـ/2014م ص148 .

وباء (822هـ/1419م) بذبح مائة وخمسين كبشا سمينًا وعشر بقرات وجاموستين وجملين ووزعت على العامة [1].

كما كانت الدولة في بعض الأحيان تقوم بإزالة المنكر كالزنا والخمر لاعتقادهم أنها سببًا في حدوث الأزمات كنوع من العقاب الإلهي، ففي وباء عام (841هـ/1437م) هاجمت الدولة أوكار الفساد والخمر ومنعت النساء من الخروج لأنهن كن يتزيّنّ ويمشين في الطرقات ليلًا ونهارًا [2].

وهناك إجراءات اقتصادية كانت تتخذها الدولة لمواجهة الأوبئة كتوفير المواد الغذائية وتسعيرها

ومحاربة الاحتكار ورفع الضرائب والمكوس كما حدث في وباء عام (819هـ/1416م)[3].

كما كانت الدولة تقوم ببعض حملات التنظيف لشبكات المياه والتي يعتقد أنها غير صالحة للشرب، وذلك مثلما حدث في وباء عام (726هـ/1326م) في دمشق، وقد أنفقت الدولة ما يقرب من ثلاثمائة ألف درهم على تنظيف شبكة المياه [4].

كما وجهت الدولة الناس إلى إعلان التوبة والإنابة إلى الله عز وجل وترك المعاصي وفعل الطاعات والتقرب إلى الله، وقد حدث ذلك في وباء عام (749هـ/1348م) حيث ندب الناس إلى لصيام ثلاثة أيام، والتضرع إلى الله .

وبالنظر إلى هذه الأوبئة خلال العصرين نجد أن العصر الأيوبي يختلف عن العصر المملوكي، فقد كان هناك اهتمام من قبل الدولة من اتخاذ الإجراءات اللازمة من بناء مستشفيات واستقدام الأطباء، ومنع الاحتكار ومنع رفع الأسعار، أما العصر المملوكي ففي بعض الأحيان كان هناك اهتمام من الدولة بالفقراء والمحتاجين، ففي عصر الظاهر

---

(1) ابن تغري بردي: مصدر سابق: ج14 ص79، اللهيبي: مرجع سابق: ص149.

(2) ابن تغري بردي: مصدر سابق: ج14 ص79، اللهيبي: مرجع سابق: ص150.

(3) ابن تغري بردي: مصدر سابق: ج14 ص41، 42، ابن إياس: مصدر سابق: ج4 ص77، اللهيبي: مرجع سابق: ص149.

(4) المقريزي: مصدر سابق: ج3 ص203.

بيبرس، وفي مجاعة عام (662هـ/ 1263م) أمر السلطان بإحصاء المحتاجين والفقراء، والتزم بإطعام عدد منهم، كما ألزم الأمراء وكبار الدولة والأعيان والتجار والأثرياء بأن يطعم كل واحد منهم عددا آخر بشرط أن يستمر الفقير في تناول نصيبه اليومي من الطعام على مدى ثلاثة أشهر، وتم تنفيذ ذلك بالفعل حتى أمكن تجاوز الأزمة، وقد تكرر ذلك فيما بين عامي (694هـ/1294) و(695هـ/1295م)، وقد كان هذا نابع عن تصور ديني يجعل منه إحسانًا وصدقة للتخفيف من الأزمات، لكن هذا التصرف الأخلاقي الذي كان في العصر الأيوبي والمملوكي الأول قد تلاشى في عهد المماليك الجراكسة، فقد كان السلاطين وكبار الأمراء والتجار هم من يحتكرون الغلال في الشون الخاصة بهم بأسعار منخفضة ويبيعونها وقت الأزمة بسعر يحقق لهم مكسبًا كبيرًا[1].

وإذا قارنا بين إجراءات الدولة في الماضي وبين الإجراءات في الحاضر لوجدنا أن البعض منها قد يتشابه كبعض الإجراءات الاقتصادية مثل توفير المواد الغذائية ومحاربة الغلاء والاحتكار وغير ذلك، ومنع الأمور التي يعتقد أنها سببًا في وقوع الوباء فقط، كمنع الزنا وشرب الخمر وغير ذلك من المحرمات، وكانت هذه الإجراءات تتخذ بعد وقوع الوباء. كما كان للسلاطين دور في زيادة الوازع الديني عند العامة حيث وجهت الدولة المتمثلة في السلطان الناس إلى إعلان التوبة والإنابة إلى الله عز وجل وترك المعاصي وفعل الطاعات والتقرب إلى الله.

أما في عصرنا الحاضر فالمنع قد يتعدى المحرمات إلى الواجبات كمنع الصلاة في المساجد، ومنع أداء العمرة أو الحج إن تطلب الأمر ذلك، والهدف من ذلك منع التجمعات التي قد تساهم في نشر الوباء، والقاعدة الفقهية تقول الضرورات تبيح المحظورات، بل قد يتعدى ذلك إلى وقف جميع أنشطة وأعمال الدولة إن تطلب الأمر، فهناك إجراءات احترازية تتخذها بعض الدول لمنع تفشي الوباء مثل: تعطيل العملية التعليمية، وقف حركة الطيران من وإلى جميع الدول، غلق المساجد، وصالات السينما والمسارح، ومنع الأفراح في الصالات العامة والخاصة، ووقف العمل في المصانع التي

---

(1) ابن إياس: مصدر سابق: ج3 ص41ــ43، قاسم عبده قاسم: عصر سلاطين المماليك: دار الشروق ــ مصر، بيروت ــ الطبعة الأولى 1415هـ/1994م ص175، 176.

بها عمال كثر، ووقف النشاط الرياضي ومنع أي عمل فيه تجمعات كثيرة وتوجيه الناس إلى المحافظة على النظافة والتطهر، وتوعيتهم بالجلوس في المنازل وغسل الأيدي باستمرار، وذلك للحد من تفشي وباء كورونا المنتشر في العالم الآن.

دور العلماء والعامة في مواجهة الأوبئة.

ـ توجيه العامة إلى التوبة والتضرع إلى الله وقراءة صحيح البخاري.

لما كثر وقوع النكبات والأوبئة في عصر المماليك ادعى بعض الناس أن الاجتماع لقراءة صحيح البخاري سبب في رفع الأوبئة حتى إن هذه العادة استقرت عند السلاطين في مصر خاصة وما جاورها من بلاد الشام؛ بل إن بعض العلماء كانوا يشاركون في ذلك ويحثون عليه، ففي عام (749هـ/1348م) اجتمع العلماء والعامة في الجامع الأموي لقراءة صحيح البخاري في ثلاثة أيام، ثم خرج الناس وضجوا بالدعاء والتضرع إلى الله[1].

كما ذكر المقريزي في أحداث عام (775هـ/1373م) أن السلطان المملوكي الأشرف شعبان استجد عنده بالقصر من قلعة الجبل بدمشق قراءة كتاب صحيح البخاري في كل يوم من أيام شهر رمضان، بحضرة جماعة القضاة ومشايخ العلم تبركا بقراءته لما نزل بالناس الوباء، فاستمر ذلك وتناوب بعض علماء الحديث[2].

يقول البعض: والأحداث كثيرة في هذا السياق يصعب تقصيها، وعلى كل حال صحيح البخاري كتاب عظيم جليل اشتمل على الصحيح المسند من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه وأيامه، إلا أن ما فيه من الأسانيد والتراجم وفتاوى الصحابة غير متعبد بتلاوته قطعًا، بل حتى الأحاديث الشريفة التي فيه اشتملت على مواضيع متعددة مقسمة على (97) كتابًا، من ضمنها كتب العبادات والمعاملات والسير وغيرها وتوظيفها جميعًا في سياق الاستشفاء والتحصين لرفع البلاء قد يبدو متكلفًا، ويضيف نقلًا عن أبي الفضل المباركفوري: "ونحن نرى أنَّ شفاء المرضى، ودفع الشدائد، ونجاة المراكب بمن فيها ... ليست مِن وظائف صحيح البخاري، ولا دواعي وجوده، أو قراءته، فإنَّ وجوده

---

(1) المقريزي: مصدر سابق: ج4 ص85.

(2) المقريزي: مصدر سابق: ج4 ص366.

بالمراكب لا يمنعها مِن الغرق، ووجوده في البيوت لا يمنعها مِن الحريق.... والوقائع الدالة على ذلك لا تحصى نقلاً، ولا عقلاً، ولو صحَّ لكان المصحف ـ كتاب الله ـ أولى بِهذه الخصائص منه، بل بأكثر منها، ولا جدال في ذلك وإن استعظمه المستعظمون، إنَّما الحرص على صحيح البخاري وموالاة قراءته فللعمل بما فيه مِن فرائض الدين ونوافله، إتباعًا لنبيِّنا الكريم، وتأسِّيًا به صلوات الله عليه وسلامه"[1].

إن دور العلماء لا يقتصر على الدعاء والتضرع وإنما إصدار الفتاوى المناسبة التي لا تخالف الشرع في إعطاء الأحكام لإعطاء الرخص للناس من أجل التخفيف من الآثار النفسية وقت الأزمات، كما تشمل تذكير العامة والتجار بمنع التكاتل على شراء السلع واحتكارها مما يؤدي لرفع الأسعار وعدم وجود السلع والأدوية وغير ذلك من المستلزمات وبيان بأن استغلال الأزمات واحتكار المواد ورفع أسعارها محرم شرعًا، فكثيرا من التجار ينتهزون مثل هذه الفرص لكي يحققوا أرباحًا كثيرًا، ولا أقصد كل التجار أو رجال الأعمال، فهناك نماذج مشرفة لا تستغل هذا الظروف لزيادة أموالهم، وإنما يستغلونها في أعمال الخير والإكثار من الصدقات والإحسان إلى الفقراء والمساكين.

أثر الأوبئة خلال العصرين الأيوبي والمملوكي.

أولًا: الآثار السياسية.

كان لانتشار الأوبئة في مصر والشام عدة آثار سياسية منها ما يأتي:

ـ توقف العمليات الحربية، أو تغيير نتيجة بعض المعارك والمواجهات العسكرية، ففي وباء عام (586هـ/1190م) أصيب جيش المسلمين بالوباء ولم يستطع الدفاع عن عكا، فاستسلمت حاميتها للصليبيين كما أصيب جيش الصليبيين الذي كان محاصرًا لعكا، إضافة إلى أن هذا الوباء تفشى بين الجنود الصليبيين الألمان أثناء عبورهم عبر أراضي بلاد الشام للمشاركة في حصار عكا، وقتل منهم الكثير[2].

---

(1) المباركفوري، محمد بن عبد الرحمن بن عبد الرحيم (ت1353هـ): تحفة الأحوزي بشرح جامع الترمذي: تصحيح/ خالد محفوظ ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ لبنان ج1 ص80، 81، محفوظ خيري: طقوس ابتدعها بعض الجهلة لمواجهة الأوبئة: مقال منشور بموقع إسلام ويب.

(2) ابن الأثير: مصدر سابق: ج2 ص82، ابن واصل، جمال الدين محمَّد بن سالم بن نصر الله

وفي عام (616هـ/1219م) وأثناء حصار الحملة الصليبية الخامسة لدمياط لمدة طويلة، أصيب أهل دمياط بالوباء مما اضطرهم إلى الاستسلام[1] .

وفي وباء عام (648هـ/1250م) الذي أصيب الحملة الصليبية السابعة، فاضطر لويس التاسع

قائد الحملة الانسحاب من المنطقة المحاصرة الموبوءة إلى دمياط، وكان ذلك من ضمن الأسباب

التي أدت إلى هزيمة الحملة[2].

وفي عام (700هـ/1300م) أصاب الوباء خيول وجمال جيش التتار في بلاد الشام، وقد مات بسببه نحو عشرة آلاف فرس، وبقي معظم جنود التتار بلا خيول، مما أدى إلى انسحابهم وعدم تحقيق أهدافهم[3].

ـ حدوث بعض الاضطرابات الداخلية:

شهدت بلاد الشام ومصر حدوث بعض الاضطرابات والفوضى، وخاصة عند تفشي الأوبئة الطواعين والمجاعات، ففي أعوام (592هـ/1195م) و(797هـ/1394م) و(818هـ/1415م) و(854هـ/1450م) حدثت بعض عمليات الفوضى من قبل العامة نتيجة فقدان المواد الغذائية وارتفاع الأسعار لدرجة أن البعض قام بمحاولات لنهب الخبز من الأفران من شدة الجوع[4].

(ت697هـ): مفرج الكروب في أخبار بني أيوب: تحقيق/ جمال الدين الشيال ـ دار الكتب والوثائق القومية ـ المطبعة الأميرية ـ القاهرة ـ 1377هـ/1957م ج2 ص347.

(1) ابن العديم، كمال الدين، عمر بن أحمد بن هبة الله (ت 660هـ): زبدة الحلب في تاريخ حلب: دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ لبنان ـ الطبعة: الأولى 1417هـ/1996م ص464، محمد حمزة: مرجع سابق: ص340.

(2) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة: ج6 ص364، محمد حمزة: مرجع سابق: ص340.

(3) المقريزي: مصدر سابق: ج2 ص337، محمد حمزة: مرجع سابق: ص340.

(4) المقريزي: مصدر سابق: ج1 ص244، ج6 ص397، ابن تغري بردي، أبو المحاسن، جمال الدين يوسف (ت 874هـ): حوادث الدهور في مدى الأيام والشهور: تحقيق/ محمد كمال الدين عز الدين ـ عالم الكتب ـ بيروت ـ لبنان ـ الطبعة الأولى 1410هـ/1990م ج1 ص287 ، محمد

وفي عام (864هـ/1459م) عندما تفشى الوباء في مصر قام بعض المماليك بإثارة الفتن والاضطرابات والتعدي على حقوق الناس، واغتصاب أراضيهم، وخاصة من كان يظهر عليه بعض علامات الوباء[1].

ـ سقوط الدول الضعيفة.

من وجهة نظري: إن كثرة وقوع الأوبئة في بعض الدول قد يؤدي إلى سقوطها، فعلى الرغم من كثرة الأوبئة التي وقعت داخل الدولتين الأيوبية والمملوكية إلا أن الآثار السياسية لهما لم ترقى إلى سقوط أيًا منهما، وهذا يرجع إلى قوة الدولتين، وربما بسبب الإجراءات التي كانت تتخذ لمواجهة هذه الأوبئة، لكن في رأيي: لو أن هذه الأوبئة والمجاعات وقعت في دولة ضعيفة لكانت النتيجة هي السقوط، فالدولة إذا كانت قوية باقتصادها وشعبها، فتستطيع أن تواجه تلك الأزمة وتخرج منها بأقل الخسائر لكنها تبقى، أما إذا كانت ضعيفة باقتصادها وشعبها فتنهار منذ الوهلة الأولى، وقد تبقى ضعيفة متأثرة بآثار هذه الأوبئة.

ثانيًا: الآثار الاجتماعية.

إن وقوع أحداث ما في أي مجتمع، لاسيما إذا كانت من الأحداث الكارثية، فلابد وأن يكون لها آثارًا سيئة على هذا المجتمع، وقد خلفت الأوبئة التي انتشرت في مصر والشام خلال العصرين الأيوبي والمملوكي عدة آثار اجتماعية منها ما يأتي:

ـ وفاة أعداد كبيرة من سكان بلاد الشام ومصر.

هذا الأمر الذي أحدث تخلخلا في الكثافة السكانية وانعكست آثارها على مختلف ميادين الحياة الاقتصادية والاجتماعية والثقافية والعلمية. إن وفاة العديد من سكان بلاد الشام ومصر وبهذه الأرقام الكبيرة التي ذكرتها المصادر يعطي صورة واضحة عن فقدان البلاد نسبة كبيرة من سكانها ما أدى إلى خلخلة في كثافتها البشرية، وما يرتبط بذلك من تراجع وتخلخل في التوزيع السكاني[2]، ففي وباء عام (575هـ/1179م) قدر عدد الموتى

حمزة: مرجع سابق: ص342.

(1) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة: محمد حمزة: مرجع سابق: ص343.

(2) مبارك الطراونة: مرجع سابق: ص52.

بالقاهرة خلال خمسة أيام حوالي سبعة عشر ألف إنسان[1].

وفي وباء عام (897هـ/1492م) كان إجمالي المتوفين بسبب هذا الوباء بلغ مائتي ألف وزيادة[2].

فلنا أن نتخيل مدى ما خلفته هذه الأوبئة وغيرها من حصد للأرواح، لاسيما وأن هناك بعض الأوبئة التي استمرت عامًا كاملًا وربما ثلاثة أعوام كوباء عام (776هـ/1375م) والذي استمر حتى عام (779هـ/ 1377م).

ـ تأثر بعض طبقات المجتمع.

نتيجة لكثرة هذه الأوبئة وانتشارها في مصر والشام تأثرت بعض طبقات المجتمع سلبًا وإيجابًا، حيث أدى هلاك العديد من الملاك والمزارعين إلى انحلال الاقطاعات بموت أصحابها، وانتقلت ملكية الأراضي إلى ملاك جدد، ولقلة أعداد الفلاحين وخراب القرى وتدميرها صدرت الأوامر بأنه ليس للفلاح الحق في مغادرة الأرض التي يعمل فيها إلا بعد ثلاث سنوات وإن غادرها يعاد إليها بالقوة، كما أدى ارتفاع أثمان متطلبات تجهيز الموتى لكثرة الجنائز إلى زيادة دخل وثراء أرباب الصنائع والحرف والباعة وأصبحوا يتمتعون بمكانة مرموقة في المجتمع لغناهم فأصبح أصحاب الحرف العامة يمتلكون أقطاعات كانت في السابق مقتصرة على الأمراء والأجناد مقابل ما يؤدونه من خدمة عسكرية للدولة[3].

كما ساهمت هذه الأوبئة في اغتناء الأطباء والحفارين والبائعين والعطارين، وذلك لكثرة الطلب عليهم من قبل الناس وراجت أحوالهم لدرجة أن العطار كان يبيع في اليوم الواحد من مائتي إلى ثلاثمائة درهم [4] .

ـ هجرة السكان.

---

(1) المقريزي: مصدر سابق: ج1 ص181.

(2) ابن إياس: مصدر سابق: ج3 ص289.

(3) مبارك الطراونة: مرجع سابق: ص54.

(4) المقريزي: مصدر سابق: ج2 ص431.

أدى انتشار هذه الأوبئة إلى هجرة العديد من السكان فرارًا من هذه الأمراض، وهُجرت قرى عديدة وأصبحت خرائب خالية من السكان كما حدث في وباء عام (695هـ/1296م) فلكثرة الموتى خلت القرى من أهلها [1]. كما أدى وباء عام (٨٢٦هـ/١٤٢٣م) إلى تلاشي قرى مدينة الكرك وخربت[2] وقد كان لذلك أثره في الكثافة السكانية[3].

ـ انحلال القيم والأخلاق.

لقد كان لهذه الأوبئة أكبر الأثر في انحلال القيم والأخلاق بين المجتمع، فكثر الفساد والفسق والفجور وتعاطى المنحرفون الفواحش وفتحت الخمارات وكثر الظلم وانتشرت السرقة، ومثال ذلك ما حدث في وباء عام(749هـ/1348م)[4]، كما انتشر البغاء بشكل كبير، وكثرت بيوت الدعارة وأصبحت تجارة مربحة، إضافة إلى انعدام الأمن في الطرقات، وانتشر القتل والسطو، وكان قطاع الطرق يتصيدون الناس ويذبحونهم ويسلبون أموالهم[5] .

ـ ضعف الوازع الديني.

كان من آثار هذه الأوبئة على بعض فئات المجتمع أن انتشر بينهم عادة الاعتقاد بصدق المنجمين ومفسري الأحلام رغم نهى الإسلام عن ذلك، وساعدت هذه البيئة على ظهور الأدعياء والمشعوذين الذين وجدوا لهم مكانًا في المجتمع مكنهم من بث دعاويهم فوجدوا من يصدقهم ويتبعهم، ففي عام(٩٠٢هـ/١٤٩٦م)، وبعد اشتداد الطاعون بمدينة دمشق مال الناس إلى المنجمين الذين قالوا إن الوباء سوف يتوقف، فعاد بعض الناس

---

(1) المقريزي: مصدر سابق: ج2 ص262.

(2) المقريزي: مصدر سابق: ج7 ص77.

(3) مبارك الطراونة: مرجع سابق: ص53.

(4) المقريزي: مصدر سابق: ج4 ص81 وما بعدها.

(5) عبد اللطيف البغدادي، عبد اللطيف بن يوسف بن محمد (ت 629هـ): الإفادة والاعتبار في الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر: مطبعة وادي النيل ـ الطبعة الأولى1286هـ ص168.

وكانوا قد هربوا من الوباء فما إن عادوا حتى مرضوا وماتوا[1].

ـ تعطيل بعض المناسبات الاجتماعية كالأفراح والصلوات في المساجد.

أدى انتشار هذه الأوبئة إلى تعطل بعض المناسبات كالأفراح، فقد ذكر المقريزي في وباء عام (749هـ/1348م) أنه:" بَطلَت الأفراح والأعراس من بَين النَّاس فَلم يعرف أَن أحدًا عمل فَرحًا فِي مُدَّة الوباء وَلَا سمع صَوت غناء" وتعطل الْأَذَان وغلقت أَكثر الْمَسَاجِد والزوايا [2].

ويلاحظ أنه في بعض الأحيان كان للدولة دور مهم في مقاومة انحلال الأخلاق وزيادة الوازع الديني عند العامة حيث وجهت الدولة المتمثلة في السلطان الناس إلى إعلان التوبة والإنابة إلى الله عز وجل وترك المعاصي وفعل الطاعات والتقرب إلى الله ، ومنع شرب الخمر والزنا، وكل ما يعتقد أنه كان سببًا في وقوع البلاء.

ثالثًا: الآثار الاقتصادية.

ـ وقف الحياة الاقتصادية في البلاد الموبؤة وارتفاع الأسعار.

إن مثل هذه الأوبئة إذا حلت بأي بلد فإنها تؤدي إلى شل الحياة الاقتصادية ففي عصري البحث كانت تتوقف الأسواق، إما خوفًا من الوباء، وإما نتيجة لقلة المواد الغذائية أو رداءتها إن توفرت في الأسواق، يقابلها ارتفاع كبير في الأسعار، وبالتالي فإن هذا الارتفاع وعدم وجود المواد الغذائية يضطر الناس لأكل الميتة والجيفة والقطط والكلاب، وقد فعل الناس ذلك في وباء عام (694هـ/1295م) حيث عم الغلاء حتى أكل الناس الكلاب والقطط والحمير [3].

وقد أشارت بعض المصادر إلى أن الكلب السمين كان يباع بخمسة دراهم والقطة بثلاثة[4].

---

(1) مبارك الطراونة: مرجع سابق: ص55.

(2) المقريزي: مصدر سابق: ج4 ص88.

(3) المقريزي: مصدر سابق: ج2 ص262.

(4) ابن إياس: مصدر سابق: ج1 ص133، اللهيبي: مرجع سابق: ص151 .

والأمر ليس متوقفًا على الطعام فقط، فقد عز وجود الماء وارتفعت أسعار السقاية، فبلغ سعر الراوية الواحدة من الماء إلى ثمانية دراهم، كما بلغت أجرة طحن أردب القمح خمسة عشر درهمًا وقد حدث ذلك في وباء عام (749هـ/1348م) [1].

كما ارتفعت أسعار الأدوية، والأقمشة التي يكفن فيها الموتى وزادت أرباح العطارين والأطباء، وإلى جانب ارتفاع أسعار بعض السلع والبضائع نجد كسادا في بضائع أخرى كثياب النساء والعطور وغيرها بسبب ما نزل بهن من موت أولادهن أو أزواجهن أو أقاربهن فضلًا عن منعهن من الخروج [2].

ـ تضرر الزراعة.

أدى انتشار هذه الأوبئة إلى تضرر القطاع الزراعي، وذلك بسبب وفاة عدد كبير من الفلاحين الذين هم عماد القطاع الزراعي، ويتجلى ذلك في وباء عام (749هـ/1348م) عندما عم الوباء جَمِيع تِلْكَ الْأَرَاضِي وَمَات الفلاحون بأسرهم فَلم يُوجد من يضم الزَّرْع، فخرج الجنود وغلمانهم لكي يحصدوا الزرع فحصدوا البعض وعجزوا عن البعض الآخر [3].

وقد أدى ذلك بطبيعة الحال إلى انخفاض الإنتاج الزراعي بشكل كبير على معظم المحاصيل وارتفاع أسعارها.

ـ تضرر الصناعة والتجارة.

كان لوقوع هذه الأوبئة آثارًا سيئة على تطور وتقدم الصناعة و التجارة فقد هلك عدد كبير من الصناع وأصحاب الحرف المختلفة، فتدهورت أغلب المهن والصنائع، فمثلًا تضررت مهنة الحياكة، وخاصة في مدينة الإسكندرية، فقد كان يوجد بها اثنا عشرة ألف نول تعمل القماش، فلم يتبقي منها ما يقل عن الألف نول، أما في بلاد الشام، فقد تعطلت الكثير من المهن، وكان البزاز (بائع القماش) يمكث في دكانه عشرون يومًا لا

---

(1) المقريزي: مصدر سابق: ج4 ص90، اللهيبي: مرجع سابق: ص152.

(2) المقريزي: مصدر سابق: ج7 ص350، اللهيبي: مرجع سابق: ص152.

(3) المقريزي: مصدر سابق: ج4 ص84، 89.

يبيع بدرهم، كما تضررت مهنة الحياكة، فقد كان يوجد في بعض المدن أربعمائة نول حياكة خربت كلها لموت أصحابها، وفي بعض الأماكن كان يوجد تسعمائة مكان لنسج الحصير فلم يبق منها إلا خمسة عشر منسجًا [1].

كما أن هذه الأوبئة أعاقت طرق التجارة التي كانت تقطع، مما أدى إلى عدم وصول البضائع في الأوقات المناسبة إلى الأسواق، وبالتالي غلاء الأسعار، وبعض التجار فقدوا بضائعهم نتيجة الفيضانات أو استيلاء قطاع الطرق عليها أو خراب الأسواق[2].

ـ تضرر الثروة الحيوانية والسمكية .

أدت هذه الأوبئة إلى إلحاق خسائر فادحة بقطاع الثروة الحيوانية والسمكية، والتي كانت تُعد مصدر رزق لبعض المواطنين، و كان بعضها الآخر عماد الجيوش العسكرية كالخيول والجمال، ففي الأعوام (590هـ/1194م) و(685هـ/1286م) و(690هـ/1290م) حدثت عدة أوبئة في الأبقار والجمال والحمير نفق منها عدد كبير[3].

وفي وباء عام (749هـ/1348م) في بلاد الشام ومصر، تأثرت الثروة الحيوانية والسمكية بشكل كبير، فقد هلكت مجموعة كبيرة من الحيوانات في هذا الوباء، ففي بلاد الشام كانوا كَانُوا يجدونَ الْأسود والذئاب والأرانب وَالْإِبِل وحمر الْوَحْش والخنازير وَغَيرهَا من الوحوش ميتَة، وفي مصر هلكت مجموعة كبيرة من المواشي والدواب وماتت القطاط حتى قل وجودها[4].

أما الطيور فقد هلك منها أيضًا عدد كبير في هذا الوباء حيث ووجدت طيور كثيرة في الزروع ميتة، ما بين غربان وحدأة وغيرها من سائر أصناف الطيور[5].

---

(1) عبد اللطيف البغدادي: مصدر سابق: ص57، محمد حمزة : مرجع سابق: ص311.

(2) محمد حمزة : مرجع سابق: ص311.

(3) النويري، أحمد بن عبد الوهاب بن محمد (ت 733هـ): نهاية الأرب في فنون الأدب: دار الكتب والوثائق القومية ـ القاهرة ـ الطبعة: الأولى 1423هـ ج31 ص240، المقريزي: مصدر سابق: ج1 ص233، ج2 ص194، محمد حمزة : مرجع سابق: ص314.

(4) المقريزي: مصدر سابق: ج4 ص89، محمد حمزة : مرجع سابق: ص316.

(5) المقريزي: مصدر سابق: ج4 ص89، محمد حمزة : مرجع سابق: ص316.

أما الثروة السمكية، فقد تضررت أيضًا بشكل كبير، وخاصة في مصر، فقد مات عدد كبير من الصيادين، وهلك عدد كبير من الأسماك، فكانت توجد طافية بكثرة على وجه الماء، وفيها أعراض الوباء، حيث امتنع الناس عن أكلها[1].

وإذا نظرنا إلى عصرنا الحالي ونحن في عام (1441هـ/2020م) ووباء كورونا (COVID-19) يجتاح العالم بأكمله ويوقف اقتصاد كل الدول نجد أن الآثار الاقتصادية لهذا الوباء لأي دولة في يومنا هذا وإن تشابهت بعض الآثار عبر العصور، إلا أن الأضرار الحالية تفوق بكثير آثار الماضي، فإن الآثار الاقتصادية السلبية للأوبئة في يومنا هذا تتعدى المصابين بها إلى غيرهم، وكثيرًا ما تضرر التبادل التجاري بين الدول بسبب هذه الأوبئة بسبب الحد من الرحلات الجوية وزيادة الإجراءات الاحترازية للبضائع، إضافة إلى انخفاض الإنتاجية بسبب التشديد على إجراءات السلامة في الشركات والمصانع، وهناك بعض الدول التي تعاني من تعطل كامل للأعمال والمصانع، وعمليات التصدير والاستيراد وتوقف السياحة وفرض الحذر الكامل، فهذه الإجراءات التي تتخذها الدول للحد من انتشار هذا الوباء لها تداعيات على اقتصادها، بل على الاقتصاد العالمي.

ولا شك أن الطبقات الدنيا والمتوسطة والعمال وأصحاب المهن المختلفة هم أكثر طبقات المجتمع تضررًا من مخلفات الأوبئة من الطبقات العليا الأثرياء وذوي النفوذ، وإن كان الوباء لا يفرق بين غني وفقير، وقد تؤثر هذه الأوبئة على طبقات المجتمع فيصبح الغني فقيرًا والعكس، وقد تزول دولًا بسبب آثار هذه الأوبئة.

رابعًا: الآثار العلمية والثقافية.

لا شك أن لهذه الأوبئة أثر سيء على النشاط العلمي والثقافي لأي دولة، فكانت الدروس والحلقات العلمية سواء في المدارس أو المساجد والكتاتيب تتوقف منعًا للتجمع خوفًا من الإصابة بالوباء، كما أن موت العلماء والفقهاء من ذوي الاختصاصات المختلفة بسبب تفشي الوباء، وبخاصة الأوبئة التي عمت بلاد مصر والشام في السنوات (749هـ/1348م) و(٧٩٥هـ /١٣٩٣م) و (٨٦٣هـ/١٤٥٩م)، كما أن الهجرة التي كانت

(1) المقريزي: مصدر سابق: ج4 ص85، 89، محمد حمزة : مرجع سابق: ص316.

تصاحب هذه الأوبئة لكثير من العلماء، أو توقف الرحلة في طلب العلم من أو إلى البلاد الموبؤة. كل ذلك يؤثر سلبًا على الحياة العلمية والثقافية[1].

إن نفس الآثار العلمية والثقافية التي وقعت في الماضي هي نفسها التي تحدث في عصرنا الحالي، وربما أكثر من ذلك بكثير، فتقريبًا العملية التعليمية متوقفة الآن في كل دول العالم بسبب فيروس كورونا، ولا شك أن لهذا التوقف آثارًا مباشرة تعود على الأطفال والشباب، والتي تثير لدينا القلق في هذه المرحلة من الأزمة ومن هذه الآثار كما يرى البعض.

1. خسائر التعلّم.

2. زيادة معدلات التسرب من الدراسة.

3ـ انعدام المساواة في النظم التعليمية، الذي يعاني منه معظم البلدان، ولا شك أن تلك الآثار السلبية ستصيب الأطفال الفقراء أكثر من غيرهم؛ وكأن المصائب لا تأتيهم فرادى.

لكن هناك الكثير مما يمكن عمله للحد من هذه الآثار على الأقل، وذلك من خلال استراتيجيات التعلُّم عن بعد، وهذا لن يتحقق إلا في الدول الأكثر تقدمًا وثراء في نفس الوقت، لكن البلدان متوسطة الدخل والأفقر والأقل تقدما، فإن استراتيجيات التعلُّم عن بعد لن تتحقق إلا حدود إمكانيات الدول، كما أن العديد من طلاب هذه الدول خاصة الفقراء لا يملكون مكتبًا للدراسة، ولا كتبًا، فضلاً عن صعوبة اتصالهم بالإنترنت أو عدم امتلاكهم لأجهزة الكمبيوتر في المنزل، أو الحواسيب المحمولة، لذا يتعين تفادي اتساع هذه الفوارق في الفرص أو تقليلها وتجنب ازدياد الآثار السلبية على تعلُّم الفقراء كما أنه يجب على جميع الأنظمة التعليمية مهمة واحدة، ألا وهي التغلب على أزمة التعلُّم التي نشهدها حالياً، والتصدي للجائحة التي نواجهها جميعا. والتحدي الماثل اليوم يتلخص في الحد من الآثار السلبية لهذه الجائحة على التعلُّم والتعليم المدرسي[2].

ـ الأوبئة بين الماضي والحاضر.

---

(1) اللهيبي: مرجع سابق: ص154، الطراونة: مرجع سابق: ص58، 59.

(2) مدونات البنك الدولي:التعليم في زمن الكورونا: التحديات والفرص .

تختلف الأوبئة وآثارها وانتشارها والإجراءات المتبعة للوقاية منها بين الماضي والحاضر منها:

أ- سرعة الانتشار.

إن سرعة انتشار الأوبئة في عصرنا الحاضر تختلف عن الماضي، ففي العصر الحاضر تكثر سرعة الانتشار بين الأفراد بل بين كل دول العالم، وهذا يرجع إلى الآتي:

1- كثافة السكان والتوسع العمراني.

إن توسع المدن وكثرة العمران نتيجة لتزايد أعداد السكان تؤدي إلى تلوث بيئي بسبب كثرة الأبنية، وعدم وجود الأماكن الخالية التي تسمح بانتشار الهواء، مما يتسبب في سرعة انتشار الأوبئة، حيث إننا نعيش اليوم على الأرض بكثافة سكانية عالية حيث أن سكان العالم الآن يقارب من 8 مليار نسمة، وهذا الرقم في تزايد مستمر، ونحن نعيش أقرب فأقرب إلى بعضنا البعض. وكلما زاد عدد الأشخاص في مساحات صغيرة، كلما ارتفع خطر التعرض لمسببات الأوبئة التي تسبب الوباء.

وقد أكد ابن خلدون قديمًا: على أن التوسع العمراني أحد مسببات انتشار الأوبئة فيقول عن الوباء:" وسببه في الغالب فساد الهواء بكثرة العمران لكثرة ما يخالطه من العفن والرطوبات الفاسدة"[1].

2- تطور وسائل المواصلات.

إن تطور وسائل النقل والموصلات في عصرنا الحديث سببًا رئيسيًا في سرعة انتشار الأوبئة، فمن خلال السيارات والقطارات والطائرات، ينتقل الوباء إلى جميع بلدان العالم في أقل من يوم واحد. حيث أن تطور وسائل المواصلات والاتصالات حول العالم إلى قرية صغيرة، ولذلك أغلقت أغلب الدول، وعطلت وسائل المواصلات الدولية والمحلية.

3- طبيعة الأغذية وعادت الناس وثقافتهم.

إن طبيعة الأغذية في الماضي تختلف عن الحاضر حتى ولو كان نفس الشيء فلا

---

(1) ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد بن محمد (ت 808هـ): مقدمة ابن خلدون: تحقيق/ عبد الله الدرويش ـ دار يعرب ـ دمشق ـ الطبعة الأولى ـ 1425هـ/2004م ج1 ص499، 500.

يوجد شيء ثابت على الإطلاق، والشيء نفسه ينطبق على الغذاء، فما يعد طبيعيا اليوم يصبح غدا صناعيًا، وما يكون صحيًا يصبح مسرطنًا، فالطعام في الماضي كان طبيعًيا مفيدًا لصحة الإنسان، أما اليوم فالأطعمة مليئة بالكيماويات التي تسبب الأمراض وخاصة تلك الوجبات السريعة الرخيصة من محلات بيع الأطعمة والوجبات الجاهزة التي يلجأ إليها البعض لضيق الوقت، و هذه الأطعمة لم تكن منتشرة في الماضي، أما اليوم فالمحلات والمطاعم منتشرة بصورة كبيرة، ولاشك أن هذه الأطعمة من الأسباب الرئيسية في انتشار الأوبئة والأمراض، كما أن عادات الناس وثقافاتهم قد تسبب انتشارا واسعا له، ومن ذلك المصافحة أو العناق أو التقبيل المباشر، وكذلك الجلوس بأعداد كبيرة في الأماكن الضيقة سيئة التهوية كل ذلك يزيد من سرعة انتشار الأوبئة.

2ـ الإجراءات.

تختلف الإجراءات التي تتخذها الدول في زمن الأوبئة من عصر لعصر، وربما من دولة لدولة في نفس العصر، ومن خلال البحث يتبين أن الإجراءات التي اتخذتها دولتي الأيوبيون والمماليك في زمن وقوع الأوبئة كانت في الغالب تتم بعد وقوع الوباء، ولم أصادف اتخاذ أي إجراء احترازي قبل تفشي الوباء على حد علمي، وكانت هذه الإجراءات كما سبق أن أشرت إليها بالتفصيل هي.

ـ إنشاء البيمارستانات لعلاج المرضى.

ـ استقدام الأطباء.

ـ منع مظاهر الفساد المنتشرة في الدولة والمجتمع.

ـ الإحسان إلى الرعية والإكثار من الصدقات وتوزيع اللحوم والخبز.

ـ منع المنكرات كالزنا وشرب الخمر وغير ذلك من الأمور المحرمة لاعتقادهم أنها سببًا في حدوث الأزمات كنوع من العقاب الإلهي.

ـ توفير المواد الغذائية وتسعيرها ومحاربة الاحتكار ورفع الضرائب والمكوس.

3ـ الوقاية.

من وجهة نظري أن سبل الوقاية من الأوبئة لا تختلف من عصر لعصر، فهي ثابتة منذ أن جاء بها الإسلام، وتستمر إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، فقد اهتم الإسلام

بالنفس البشرية، وجعل الحفاظ عليها من مقاصد الشريعة الإسلامية، وجعل قتلها أو تعريضها للهلاك، والخطر من الكبائر، مع الأخذ بجميع الأسباب المتاحة لدفع المرض، ومع الحيطة والحذر والوقاية قبل الوقوع والإصابة، ثم الأخذ بجميع الأسباب المتاحة للعلاج والشفاء إذا وقعت الإصابة[1].

وعلى الرغم من التقدم المذهل في مجالات الطب العلاجي بالأدوية الحديثة والأجهزة المبتكرة فما زال المبدأ الرئيسي في الطب هو (الوقاية خير من العلاج)، والإسلام أول دين في تاريخ الإنسانية يخلق الأسلوب العقائدي في الطب الوقائي ويطبقه بنجاح، قبل أن تلجأ إليه الدول الأخرى وتنسبه إليها بأكثر من 14 قرنًا[2].

ـ منهج النبي صلى الله عليه وسلم في الوقاية من الأوبئة.

الطب الوقائي في المنهج النبوي يقوم على الوقاية من الأمراض قبل وقوعها، والعلاج منها بعد وقوعها. أما قبل وقوعها، فيكون بالطهارة والنظافة، والمحافظة على البيئة، والطعام والشراب الصحي

1ـ الطهارة والنظافة.

لقد جاء الإسلام منذ أكثر من 1400 عامًا، في وقت كان الإنسان لا يعرف فيه شيئًا عن أهمية النظافة في محاربة الأمراض، ولا يعرف ما هو الميكروب أو الطفيليات، ولذلك كان الإسلام بهذه التعبيرات لكي يُبسط الأمور للناس ويُخاطبهم على قدر عقولهم وفهمهم وعلمهم، وفي الوقت نفسه كان الإسلام بهذه التعبيرات يربط النظافة بالعقيدة، ويجعلها جزءًا لا يتجزأ من تعاليم العبادة والصلاة. بل جعلها جزءًا من الإيمان، لقول

---

(1) زياد البطاينة: الإسلام وموقفه من الوباء : مقال منشور في موقع وكالة زاد الأردن الإخبارية.

(2) سعيد بن صالح الحمدان: الطب الوقائي في الإسلام من صحة الأرواح إلى صحة الأجساد والبيئة: مقال منشور بموقع صيد الفوائد.

الرسول الكريم ـ صلى الله عليه وسلم ـ: "الطهور شطر الإيمان"[1] أي نصفه، وبهذا يجعل الإسلام مسألة النظافة عقيدة وسلوكًا ملزمًا للمسلم في كل شؤون حياته، وليست لمجرد الخوف من المرض وحده، وما أعظم أن تكون النظافة غاية لذاتها قبل أن تكون وسيلة لمنع الأمراض[2].

كما حدد الإسلام سننًا للفطرة، ينبغي على المسلم والمسلمة الحرص عليها، فمن أبرز مجالات الطب الوقائي في السنة النبوية الطهارة والنظافة للجسد كله، وخاصة نظافة بعض أماكن في الجسد يكثر فيها العرق والميكروبات، بل وجعل ذلك من سنن الفطرة، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "خمس من الفطرة الختان، والاِسْتِحْدَادُ (حَلْقِ العَانَة)، وتقليم الأظافر، ونتف الإبط، وقص الشارب"[3].

كما دعا النبي صلى الله عليه وسلم إلى المحافظة على نظافة وطهارة الفم، فقال صلى الله عليه وسلم: "لولا أن أشق على أمتي لأمرتهم بالسواك عند كل صلاة" [4].

والمتأمل في هذه السنن يدرك دورها في وقاية الإنسان من الأمراض وحمايته، فضلًا عمّا فيها من جمال الظاهر .

2ـ المحافظة على البيئة .

إن نظافة البيئة أحد أسباب المحافظة على الصحة وهي تدخل ضمن المنهج الوقائي في الطب النبوي، فلم يهتم النبي صلى الله عليه وسلم بأمر المسلم بنظافة جسده وثيابه فقط،

---

(1) أحمد بن حنبل، أبو عبد الله أحمد بن محمد (ت 241هـ): مسند الإمام أحمد بن حنبل: تحقيق/ شعيب الأرناءوط وآخرون ـ مؤسسة الرسالة ـ بيروت ـ لبنان ـ الطبعة الأولى 1421هـ/2001م ج37 ص542.

(2) سعيد الحمدان: مرجع سابق.

(3) البخاري، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل (ت256): صحيح البخاري: تحقيق / مصطفى ديب البغا ـ دار ابن كثيرـ اليمامة ـ بيروت ـ الطبعة الثالثة 1987/1407م حديث رقم (5550) ج5 ص2209، من الطب الوقائي في السُنَّة النبوية: مقال منشور بموقع إسلام ويب.

(4) أحمد بن حنبل: مصدر سابق: حديث رقم (607) ج2 ص43، من الطب الوقائي في السُنَّة النبوية: مرجع سابق.

بل اهتم كذلك بأمره بنظافة البيئة التي حوله، والمحافظة عليها، حتى يعيش الناس في بيئة صحية خالية من الأوبئة والأمراض، ومن ثم فكل أمر يلوث البيئة من حولنا سواء كان يتعلق بالماء، أو الهواء، أو الطريق، فهو مخالف لهدي النبي صلى الله عليه وسلم.

فبالنسبة للماء حرص المشرع على عدم تلويث مياه الشرب، فنهى أن يغمس المستيقظ من النوم يده في الإناء قبل أن يغسلها، "فإن أحدكم لا يدري أين باتت يده"[1].

كما منع التبرز أو التبول قرب موارد المياه وفي ظل الناس ومكان تجمعاتهم، بل شدد في تحريم هذه الأفعال حتى عدَّها من مسببات اللعن، فقد صح عن النبي صلى الله عليه وسلم قوله: "اتقوا الملاعن الثلاث: البراز في الموارد، وقارعة الطريق، والظل"[2].

كما نهى ρ أن يبال في الماء الراكد، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لا يبولن أحدكم في الماء الدائم الذي لا يجري ثم يغتسل فيه"[3] .

أما بالنسبة لتلويث الهواء، وتلويث البيئة بوجه عام، فذلك غير جائز، ويدخل تحت قوله صلى الله عليه وسلم: (لا ضرر ولا ضرار)[4].

3ـ التحكم في الأمراض التي تنتقل عن طريق الهواء:

إن نفخ الرذاذ يؤدي إلى انتقال كثير من الأمراض المعدية كالأنفلونزا وغيرها من الأمراض، خاصة الفيروسية؛ ولذلك فإنه ينصح بعدم النفخ والتنفس في آنية الأكل والشرب، كما يستحسن تغطية الوجه في أثناء العطاس والتثاؤب، لقد وجه الإسلام أتباعه إلى هذه الوسائل الوقائية منذ عهد الرسول ρ وحتى قيام الساعة؛ فعن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال: "نهى رسول الله أن يتنفس في الإناء أو ينفخ فيه"[5].

أما العطاس والتثاؤب فقد جاء في الحديث أن: رسول صلى الله عليه وسلم "كان إذا

---

(1) البخاري: مصدر سابق: حديث رقم (160) ج1 ص72، من الطب الوقائي: مرجع سابق.

(2) ابن ماجة، أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني(ت 273هـ) سنن ابن ماجة: تحقيق/ محمد فؤاد عبد الباقي ـ عيسى البابي الحلبي ـ القاهرة ـ حديث رقم (328) ج1 ص119.

(3) البخاري: مصدر سابق: حديث رقم (236) ج1 ص94.

(4) أحمد بن حنبل: مصدر سابق: حديث رقم (2865) ج5 ص55.

(5) أحمد بن حنبل: مصدر سابق: حديث رقم(1907) ج3 ص390، عصام عبده: للوقاية من الأوبئة اتبع تعاليم الإسلام: مقال منشور بموقع إسلام أون لاين.

عطس غطى وجهه بيديه أو بثوبه وغض بها صوته"[1]، وفي حديث آخر قال: قال رسول الله: "إذا تثاءب أحدكم فليضع يده على فيه.."[2] .

4ـ الطعام والشراب الصحي.

يظهر الطب النبوي الوقائي في الطعام والشراب من خلال عدة وصايا وردت عن النبي ـ ρ ـ

منها:

تحريم أكل بعض الحيوانات وشرب ألبانها مثل ذي الناب والمخلب، وأسلوب ذبح الحيوانات الجائز أكلها من خلال التسمية عليها، ونظافة الطعام والشراب كتغطيتهما، وآداب الطعام والشراب كالنهي عن الأكل متكئًا، وعدم النفخ في الطعام والشراب، والحض على تناول بعض أنواع من الطعام والشراب كالتمر وزيت الزيتون، وعدم ملء البطن بالطعام والشراب[3].

5ـ السيطرة على بعض الأمراض الناتجة عن البول والبراز.

من المعلوم أن تناول الأطعمة الملوثة يعتبر من أهم وسائل انتقال الأمراض؛ حيث يمكن انتقال الجراثيم من براز المصاب إلى الآخرين عن طريق اليد أو أوعية الطعام، ولذا يحث الإسلام على استخدام اليد اليسرى لغسل السبيلين مع إبقاء اليد اليمنى نظيفة للوضوء والأكل؛ ففي الحديث عن عائشة رضي الله عنها قالت: "كانت يد رسول الله اليمنى لطهوره وطعامه، واليسرى لخلائه وما كان من أذى" [4].

إن هذا النظام يضمن نظافة اليد اليمنى من البراز، في حين يمنع الأكل باليد اليسرى، وبذلك تقل نسبة انتقال الجراثيم إلى الفم عن طريق اليد[5].

---

(1) الترمذي، محمد بن عيسى بن سَوْرة (ت279هـ): سنن الترمذي تحقيق/ بشار عواد معروف ـ دار الغرب الإسلامي ـ بيروت ـ 1998م حديث رقم (2745) ج4 ص383.

(2) أحمد بن حنبل: مصدر سابق: حديث رقم (11889) ج18 ص387.

(3) الطب الوقائي النبوي يمنع انتشار الأمراض والأوبئة: مقال منشور بموقع الشرق.

(4) أبو داود، سليمان بن الأشعث (ت275هـ) سنن أبي داود: تحقيق/ محمد محيي الدين عبد الحميد ـ المكتبة العصرية ـ صيدا ـ بيروت ـ حديث رقم (33) ج1 ص9.

(5) عصام عبد: مرجع سابق:

أما بعد وقوع الأوبئة فكان هدي النبي ρ يتمثل في التداوي والعلاج مع الأمراض عامة، وبالحجر الصحي مع الأمراض المعدية خاصة:

1ـ التداوي بعد وقوع المرض.

كان للنبي صلى الله عليه وسلم تعاليم وتوجيهات فيما يخص الوقاية من الأمراض قبل وقوعها، فإن المنهج النبوي له تعاليمه مع الأمراض إذا وقعت، فيأمر بالتداوي والعلاج مع الأمراض، فعن أسامة بن شريك رضي الله عنه قال: كنت عند النّبيّ صلى الله عليه وسلم وجاءت الأعراب، فقالوا: يا رسول الله؛ أنتداوى؟ قال: "نعم، يا عباد الله، تداووا، فإنّ الله ـ عزّ وجلّ ـ لم يضع داء إلّا وضع له دواء ـ شفاء ـ غير داء واحد، قالوا: وما هو؟ قال: الهرم" [1].

2ـ الحَجْر الصحي مع الأمراض المُعْدية.

يعتبر الحجر الصحي من أهم الوسائل للحَدِّ من انتشار الأمراض الوبائية في العصر الحاضر، وبموجبه يمنع أي شخص من دخول المناطق التي انتشر فيها نوع من الوباء، والاختلاط بأهلها وكذلك يمنع أهل تلك المناطق من الخروج منها سواء أكان الشخص مصابًا بهذا الوباء أم لا[2].

وقد بين النبي صلى الله عليه وسلم في عدد من الأحاديث مبادئ الحجر الصحي بأوضح بيان، ووضع قيودًا على من كان مرضه معديًا، فمنع الناس من الدخول إلى البلدة المصابة بالطاعون، ومنع كذلك أهل تلك البلدة من الخروج منها، فقال ـ ρ ـ :"إذا سمعتم بالطاعون بأرض فلا تدخلوها، وإذا وقع بأرض وأنتم فيها فلا تخرجوا منها"[3].

بل إن النبي ـ ρ ـ جعل الفرار من الوباء كالفرار من الزحف الذي هو من كبائر الذنوب ، كما جعل للصابر فيها أجر الشهيد، فقد روت عائشة ـ رضي الله عنها ـ أن النبي

---

(1) أحمد بن حنبل: مصدر سابق: حديث رقم (18454) ج30 ص394.

(2) مبادئ الحَجْر الصحي في السنة النبوية: مقال منشور بموقع إسلام ويب.

(3) البخاري: مصدر سابق: حديث رقم (5396) ج5 ص2163.

صلى الله عليه وسلم قال:" لا تفنى أمتي إلا بالطعن والطاعون، قلت: يا رسول الله هذا الطعن قد عرفناه، فما الطاعون؟ قال: غدة كغدة البعير، المقيم بها كالشهيد، والفار منها كالفار من الزحف"[1]، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :" الفار من الطاعون كالفار من الزحف، والصابر فيه كالصابر في الزحف"[2].

ويري البعض أن الإعجاز النبوي في هذه الأحاديث يتجلى في منع الشخص المقيم في أرض الوباء أن يخرج منها حتى وإن كان غير مصاب، فإن منع الناس من الدخول إلى أرض الوباء قد يكون أمرًا واضحًا ومفهومًا، ولكن منع من كان في البلدة المصابة بالوباء من الخروج منها، حتى وإن كان صحيحًا معافى، أمر غير واضح العلة، بل إن المنطق والعقل يفرض على الشخص السليم الذي يعيش في بلدة الوباء، أن يفر منها إلى بلدة أخرى سليمة، حتى لا يصاب بالعدوى ولم تعرف العلة في ذلك إلا في العصور المتأخرة التي تقدم فيها العلم والطب، فقد أثبت الطب الحديث أن الشخص السليم في منطقة الوباء قد يكون حاملًا للميكروب، وكثير من الأوبئة تصيب العديد من الناس، ولكن ليس كل من دخل جسمه الميكروب يصبح مريضًا، فكم من شخص يحمل جراثيم المرض دون أن يبدو عليه أثر من آثاره[3].

كما أن من قيود الحجر التي أرسى قواعدها النبي ـ ρ ـ أنه منع دخول الشخص المصاب بالوباء على الصحيح، فقال ـ ρ ـ: "لا يحل الممرض على المصح، وليحل المصح حيث شاء"[4]، وقال: "لا يوردن ممرض على مصح"[5].

إن المسلم مطالب بالالتزام بقواعد الحجر الصحي في حالة الوباء، ولو أدى ذلك إلى

---

(1) أحمد بن حنبل: مصدر سابق: حديث رقم (25118) ج42 ص53.

(2) أحمد بن حنبل: مصدر سابق: حديث رقم (14478) ج22 ص365.

(3) مبادئ الحَجْر الصحي في السنة النبوية: مقال منشور بموقع إسلام ويب.

(4) البيهقي، أحمد بن الحسين بن علي (ت458هـ): السنن الكبرى: تحقيق/ محمد عبد القادر عطا ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ لبنات ـ الطبعة: الثالثة 1424هـ/2003م حديث رقم (14239) ج7 ص354.

(5) البخاري: مصدر سابق: حديث رقم (5437) ج5 ص2177.

التضحية بنفسه فالرسول ρ يقول: "الطاعون شهادة لكل مسلم"[1].

لقد أكد النبي ρ منذ أكثر من (14) قرنًا من الزمان على سبل الوقاية من الأوبئة، ويعترف الغرب اليوم ومنظمة الصحة العالمية وهم يواجهون وباء كورونا المستجد بأن الطهارة والنظافة والحجر الصحي يمنع تفشي هذا الوباء.

وقد أكد باحث أمريكي في تقرير له نُشر في 21 مارس 2020م بمجلة نيوزويك الأمريكية على أن النصائح التي تنادي بها منظمة الصحة العالمية وبعض الأطباء اليوم تعود إلى النبي محمد ρ منذ أكثر من (1300) سنة.

الخاتمة

بعد إلقاء الضوء عن هذا الموضوع: وهو أثر الأوبئة في مصر والشام خلال العصرين الأيوبي والمملوكي، فإن الباحث قد توصل إلى بعض النتائج منها:

ـ أظهرت الدراسة أن للأوبئة والطواعين أخطار كبيرة تصيب الأمم والشعوب فتهلكها، وتهدد أمن الدول وتؤذن بزوالها وإدبارها، فهي بلاء من الله يصيب به من يشاء، وسيف من سيوفه المسلط على عباده يضربهم به بقصد الرحمة أو النقمة.

ـ كشفت الدراسة أن مصر وبلاد الشام تعرضتا للكثير من الأوبئة والطواعين التي فتكت بالكثير من الأرواح.

ـ أظهرت الدراسة أن جوائح الأوبئة والطواعين كانت أشد عنفًا في مصر أكثر من بلاد الشام.

ـ أدي الموت الجماعي بسبب الأوبئة إلى نقصان في عدد السكان والقرى على حد سواء.

ـ تزايد ثراء الطبقات العليا التي تضم أهل الدولة وكبار الأمراء والتجار بفعل احتكار السلع والمؤن، في حين انكمشت الطبقة الوسطى من العلماء والفقهاء والموظفين وأصحاب الحرف ونحوهم.

---

(1) البخاري: مصدر سابق: حديث رقم (2675) ج3 ص1041.

ـ انعدام الأمن في الطرقات وانتشار القتل والسطو، فقد كان قطاع الطرق يتصيدون الناس ويذبحونهم ويسلبون أموالهم.

ـ انتشار البغاء وكثرت دور الدعارة التي أضحت تجارة مربحة.

ـ أثرت هذه الأوبئة على النشاط الزراعي بسبب قلة ري الأرض، وقلة عدد الفلاحين بسبب هلاك معظمهم في هذه الأوبئة.

ـ في بعض الأحيان وبسب الوباء ازداد تقرب الناس إلى الله بالدعاء والاستغفار والقيام بممارسة العديد من الشعائر الدينية، وذلك بصيام ثلاثة أيام والاعتكاف في المساجد، ودعوة النواب والحكام إلى الابتعاد عن المعاصي والمفاسد وإظهار مظاهر التوبة وإصدار الأوامر بإغلاق الخمارات ومعاقبة مقترفي الآثام ومرتكبي الفواحش لأنها حسب اعتقادهم من أسباب وقوع الوباء.

ـ أكد البحث على أن الإسلام أول دين في تاريخ الإنسانية يخلق الأسلوب العقائدي في الطب الوقائي ويطبقه بنجاح، قبل أن تلجأ إليه الدول الأخرى وتنسبه إليها بأكثر من 14 قرنًا.

ـ أكد البحث على اعتراف الغرب بأن سبل الوقاية التي ينادون بها الآن من نظافة وحجر صحي علمها النبي محمد ρ لأمته منذ أكثر من 1400عام .

ـ أكد البحث على وجوب الأخذ بأسباب الوقاية والعلاج، مع القناعة والاعتقاد بأننا نفر من قدر الله إلى قدر الله.

ـ وجوب تجنب أماكن العدوى والالتزام بقواعد الحجر الصحي التي تحددها الحكومات والقوانين.

ـ وجوب التكافل والتعاون بين البشر للتغلب على هذا الوباء الخطير.

وفي النهاية أقول: وما هذه الأمراض التي حلت بالعالم مثل كورونا وغيرها، ما كان لها أن تنتشر في بلاد المسلمين لو أخذوا بتدابير الوقاية التي خَطَّ نهجها نبي الهدى والرحمة محمد ρ.

وأسأل الله أن يجعل هذا العمل خالصا لوجهه الكريم.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

المصادر والمراجع

أولًا: المصادر:

- ابن الأثير، أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد (ت 630هـ):
  الكامل في التاريخ: تحقيق/ عمر عبد السلام تدمري ـ دار الكتاب العربي ـ بيروت ـ لبنان ـ الطبعة: الأولى 1417هـ/1997م.
- ابن أبي أصيبعة، أحمد بن القاسم بن خليفة بن يونس (ت 668هـ):
  عيون الأنباء في طبقات الأطباء: تحقيق/ نزار رضا ـ دار مكتبة الحياة ـ بيروت.
- ابن إياس، زين العابدين محمد بن أحمد الناصري القاهري (ت930هـ):
  بدائع الزهور في وقائع الدهور: الهيئة المصرية العامة للكتاب.
- ابن أيبك الدواداري، أبو بكر بن عبد الله (ت بعد 736هـ):
  كنز الدرر وجامع الغرر: تحقيق/ سعيد عبد الفتاح عاشور ـ عيسى البابي الحلبي ـ القاهرة ـ 1391هـ/1972م.
- أحمد بن حنبل، أبو عبد الله أحمد بن محمد (ت 241هـ):
  مسند الإمام أحمد بن حنبل: تحقيق/ شعيب الأرناءوط وآخرون ـ مؤسسة الرسالة ـ بيروت ـ لبنان ـ الطبعة الأولى 1421هـ/2001م.
- البخاري، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل (ت256):
  صحيح البخاري: تحقيق / مصطفى ديب البغا ـ دار ابن كثير ـ اليمامة ـ بيروت ـ الطبعة الثالثة 1987/1407م .
- البيهقي، أحمد بن الحسين بن علي (ت458هـ):
  السنن الكبرى: تحقيق/ محمد عبد القادر عطا ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ لبنات ـ الطبعة: الثالثة 1424هـ/ 2003م.
- الترمذي، محمد بن عيسى بن سَوْرة (ت279هـ):
  سنن الترمذي تحقيق/ بشار عواد معروف ـ دار الغرب الإسلامي ـ بيروت ـ 1998م.
- ابن تغري بردي، أبو المحاسن جمال الدين يوسف (ت874هـ):
  حوادث الدهور في مدى الأيام والشهور: تحقيق/ محمد كمال الدين ـ عالم الكتب ـ بيروت ـ لبنان ـ الطبعة الأولى 1410هـ/1990م.
  النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة: وزارة الثقافة والإرشاد القومي ـ دار الكتب ـ مصر ـ د. ت.
- ابن حجر العسقلاني، أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد (ت 852هـ):
  إنباء الغمر بأبناء العمر: تحقيق/ حسن حبشي ـ المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ـ لجنة إحياء التراث الإسلامي ـ مصر 1389هـ/1969م.

- ابن الحمصي أحمد بن محمد بن عمر الأنصاري (ت934هـ):
  حوادث الزمان ووفيات الشيوخ والأقران: تحقيق/ عبد العزيز حرفوش - دار النفائس - بيروت - لبنان - الطبعة الأولى 1421هـ/2000م.
- ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد بن محمد (ت 808هـ):
  مقدمة ابن خلدون: تحقيق/ عبد الله الدرويش - دار يعرب - دمشق - الطبعة الأولى - 1425هـ/2004م .
- أبو داود، سليمان بن الأشعث (ت275هـ)
  سنن أبي داود: تحقيق/ محمد محيي الدين عبد الحميد - المكتبة العصرية - صيدا - بيروت.
- الذهبي، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد (ت748هـ):
  تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام: تحقيق/ عمر عبد السلام التدمري - دار الكتاب العربي - بيروت - لبنان - الطبعة الثانية 1413هـ/ 1993م.
- عبد اللطيف البغدادي، عبد اللطيف بن يوسف بن محمد (ت 629هـ):
  الإفادة والاعتبار في الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر: مطبعة وادي النيل - الطبعة الأولى 1286هـ .
- ابن العديم، كمال الدين، عمر بن أحمد بن هبة الله (ت 660هـ):
  زبدة الحلب في تاريخ حلب: دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان - الطبعة الأولى 1417هـ/1996م .
- ابن العماد، عبد الحي بن أحمد بن محمد (ت 1089هـ):
  شذرات الذهب في أخبار من ذهب: تحقيق/ محمود الأرناؤوط - دار ابن كثير - دمشق - بيروت - الطبعة الأولى 1406هـ/1986م.
- ابن قيم الجوزية، محمد بن أبي بكر بن أيوب (ت 751هـ):
  زاد المعاد في هدي خير العباد: مؤسسة الرسالة - بيروت - مكتبة المنار الإسلامية - الكويت - الطبعة السابعة والعشرون - 1415هـ /1994م.
- ابن ماجة، أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني (ت 273هـ)
  سنن ابن ماجة: تحقيق/ محمد فؤاد عبد الباقي - عيسى البابي الحلبي - القاهرة .
- المقريزي، أحمد بن علي بن عبد القادر (ت845هـ):
  إغاثة الأمة بكشف الغمة: تحقيق/ كرم حلمي فرحات - دار عين للدراسات - القاهرة - الطبعة الأولى 1427هـ/2007م.
  السلوك لمعرفة دول الملوك: تحقيق/ محمد عبد القادر عطا - دار الكتب العلمية - لبنان - بيروت - الطبعة الأولى 1418هـ/1997م.
- ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن على (ت 711هـ):

لسان العرب: دار صادر ـ بيروت ـ الطبعة الثالثة 1414هـ.

- ابن نظيف الحموي أبو الفضائل محمد بن علي (ت. ق. 7هـ):
التاريخ المنصوري (تلخيص الكشف والبيان في حوادث الزمان) تحقيق/ أبو العبد دودو ـ مطبعة الحجاز ، مجمع اللغة العربية ـ دمشق ـ د. ت .
- النويري، أحمد بن عبد الوهاب بن محمد (ت 733هـ):
نهاية الأرب في فنون الأدب: دار الكتب والوثائق القومية ـ القاهرة ـ الطبعة الأولى 1423هـ.
- ابن واصل، جمال الدين محمَّد بن سالم بن نصر الله (ت697هـ):
مفرج الكروب في أخبار بني أيوب: تحقيق/ جمال الدين الشيال ـ دار الكتب والوثائق القومية ـ المطبعة الأميرية ـ القاهرة ـ 1377هـ/1957م.

ثانيًا: المراجع والدوريات والصحف والمقالات.

- أَحمد عِيسى:
تاريخ البيمارستانات في الإسلام: دار الرائد العربي، بيروت ـ لبنان ـ الطبعة: الثانية1401هـ/1981م .
- أحمد معمور العسيري:
موجز التاريخ الإسلامي منذ عهد آدم عليه السلام (تاريخ ما قبل الإسلام) إلى عصرنا الحاضر 1417هـ/1996ـ1997م: مكتبة الملك فهد الوطنية ـ الرياض ـ السعودية ـ الطبعة الأولى 1417هـ/ 1996م .
- إسلام ويب: موقع
مبادئ الحَجْر الصحي في السنة النبوية.
من الطب الوقائي في السُنَّة النبوية.
- خلف أحمد محمود:
البيمارستانات في الحضارة الإسلامية: مقال منشور مجلة الداعي الشهرية الصادرة عن دار العلوم ديوبند ـ الجامعة الإسلامية ـ الهند ـ العدد 6ـ7 عام 2014م .
- زياد البطاينة:
الإسلام وموقفه من الوباء: مقال منشور في موقع وكالة زاد الأردن الإخبارية.
- سعيد بن صالح الحمدان:
الطب الوقائي في الإسلام من صحة الأرواح إلى صحة الأجساد والبيئة: مقال منشور بموقع صيد الفوائد.
- الشرق. موقع. الطب الوقائي النبوي يمنع انتشار الأمراض والأوبئة.
- عامر حمود:
الأمراض والأوبئة وأثرهما على الحياة الاجتماعية لبلاد المغرب العربي في

العصور الإسلامية: بحث منشور بمجلة الجامعة العراقية ـ العدد1/41.

- عبد العزيز الرشيد: تاريخ الكويت: مكتبة الحياة ـ بيروت ـ لبنان ـ1978م.
- عصام عبده:

للوقاية من الأوبئة اتبع تعاليم الإسلام: مقال منشور بموقع إسلام أون لاين.

- فتحي اللهيبي، فائز الحديدي:

جوانب من الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية في العصر المملوكي تفسير جديد: جامعة الموصل ـ الطبعة الأولى 1435هـ/2014م .

- قاسم عبده قاسم:

عصر سلاطين المماليك: دار الشروق ـ مصر، بيروت ـ الطبعة الأولى 1415هـ/1994م

- مبارك محمد الطراونة:

الأوبئة (الطواعين) وآثارها الاجتماعية في بلاد الشام في عصر المماليك الجراكسة (784ـ922هـ/1382ـ1516م): بحث منشور بالمجلة الأردنية للتاريخ والآثار ـ مجلد 4 العدد 3 عام 2010م .

- مجهول: الموسوعة الموجزة في التاريخ الإسلامي: المكتبة الشاملة.
- محفوظ خيري: طقوس ابتدعها بعض الجهلة لمواجهة الأوبئة: مقال منشور بموقع إسلام ويب.
- محمد حمزة محمد صلاح:

الكوارث الطبيعية في بلاد الشام ومصر (491ـ923هـ/1097ـ1517م): رسالة ماجستير منشورة ـ الجامعة الإسلامية ـ غزة ـ فلسطين ـ 1430هـ /2009م.

- مدونات البنك الدولي: التعليم في زمن الكورونا: التحديات والفرص .